بين المعرفة وثقافة الغزو
كيف نواجه الاستشراق الجديد؟

د. وفاء مرزوق*

لم يتغيّر الاستشراق الجديد عن نظيره القديم سوى بالأساليب وترتيب المصالح الجديدة والأولويّات. كما أنَّ الولايات المتّحدة، ومنذ بروزها كقوّة عالميّة بُعيد الحرب العالميّة الثّانية، سَعَت إلى استلام دفّة الدّراسات الاستشراقيّة ومنافسة أوروبّا في هذا المجال؛ بَيْدَ أنّها ما لبثت أن أخضعت هذه الدّراسات لسياساتها الاستراتيجيّة، بل سَعَت إلى أكثر من ذلك من خلال إعادة تفكيك صورة الإسلام وإعادة تركيبها ببراغماتيّة تتّفق ومصالحها وقِيَمها الرّأسماليّة وتوسُّعها في العالم، وبخاصّة في الشرق الأوسط من الهند إلى الأطلسيّ.

والواضح أنَّ أزمة الاستشراق الّتي تحدَّث عنها أنور عبد الملك وإدوارد سعيد، تمثِّل وجهة نظرٍ عربيّة تنشد حوار الحضارات وردم الهوّة بين الشّرق والغرب، من خلال تغيير المناهج والمضامين والأهداف الّتي اعتمَدَها الاستشراق الكلاسيكيّ لِفهمِ الشّرق واستيعابِه، وبالتّالي نقل ما يمكن نقله، ودراسة ما يمكن دراسته. أمّا الأزمة الّتي رآها الغربُ، فكانت تَكمُن في تطوير الأساليب وتوسيع الأهداف، بما يخدم مصالحه الرّأسماليّة البراغماتيّة، فهو لا ينظر للشّرق كأساسٍ وإنّما كهدفٍ، فهل وقع الاستشراق في أزمتَين؟

الاستشراق الجديد والسّياسة الأميركيّة

بعد الحرب العالميّة الثّانية، حاولت الولايات المتّحدة الأميركيّة الاستيلاء على معظم المخطوطات العربيّة وضمّها إلى مكتباتها، وإنشاء عديد من الكراسي المختصّة بالدّراسات الشّرقيّة على غرار أوروبّا، كما عَمدَت إلى دعم الحملات التّبشيريّة للإحاطة بكلّ تراث الشّرق وعلومه، إلى جانب نشر الدّيانة المسيحيّة؛ وقد أنفقت أموالاً ضخمة في دعم مراكز الأبحاث ووسائل الإعلام من أجل مشروعها للدّراسات الشّرق أوسطيّة، حيث أظهرت منذ البداية اهتماماً بمنطقة الشّرق الأوسط وشمال أفريقيا، عبّرت عنه سياستها اللّاحقة تجاه هذه المناطق الّتي تمثِّل العالم العربيّ والإسلاميّ، وهي سياسة لا تختلف كثيراً عن السّياسة الأوروبّيّة، عدا عن جهة ترتيب المصالح والأولويّات. لقد كان لأحداث ١١ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١ أثرٌ بالغٌ على السّياسة الأميركيّة تجاه العرب والمسلمين. فكلُّ أصابع الاتّهام حينها كانت موجهة ضد «الإسلاميّين المتشدِّدين»، وعبارة متشدِّدين تأتي هنا كَصِفةٍ وليس استثناء، فالمقصود هو العالم الإسلاميّ برُمَّتِه وعدائيّته لأميركا. لماذا افترَض المستشرقون الأميركيّون هذه العدائيّة إذا لم يكونوا يضمرون عدائيّةً كبيرة للإسلام كَدِينٍ، وللفكر الإسلاميّ كَتَوجُّهٍ وخيارٍ؟ لماذا جوبِهَ الإسلامُ بشراسةٍ وتمَّ وَصلُه بالأطروحات الاستشراقيّة القديمة؟ ولماذا كان يُنْظَر دائماً للعربيّ أو المسلم على أنَّه حاملٌ لِجينات الإرهاب؟ وحتّى الّذين نبّهوا إلى أنَّ الإرهاب ليس من صميم الإسلام، راحوا يبحثون عن عوامل بروز هذه الظّاهرة في العالم العربيّ والإسلاميّ، وينظرون إليها وكأنَّ المسألة لا تخرج عن نطاق هذا الشّرق المُسلِم المغلوب على أمره. سَعَت أميركا منذ بروزها كقوّةٍ عالميّةٍ بُعيد الحرب العالميّة الثّانية إلى استلام دفّة الدّراسات الاستشراقيّة ومنافسة أوروبا في هذا المجال، بيد أنَّها ما لبثت أنْ أَخضعت هذه الدّراسات لسياستِها، بل سَعَت إلى أكثر من ذلك من خلال إعادة تفكيك الإسلام وتركيبه بطريقةٍ براغماتيّةٍ تتّفق ومصالحها وقِيَمِها الرّأسماليّة؛ فليس على سبيل المصادفة أن هوجمت دراسات الشّرق الأوسط في عقرِ دارها، حين انتقد المستشرق الأميركيّ مارتن كريمر ذلك في كتابه (بروج عاجيّة على الرّمال: فشل الدّراسات الشّرق أوسطيّة في أميركا)، وإنّما قصد كريمر بناءَ دراساتٍ مشروطةٍ بخدمتها للسّياسة الأميركيّة في الشّرق الأوسط، وكذلك فعل دانييل بايبس عبر موقعه الإلكترونيّ «مرصد الجامعات».

بهذا المنطق لن يتسنّى للعالم العربيّ والإسلاميّ أن يكون فاعلاً دوليّاً له موقعه على الخارطة السّياسيّة، ما لم يُغيِّر من نهجه كَمُتَلَقٍّ لِيُصبح صاحب الكلمة، وبغير العلوم والفكر الرّاشد والسّياسة الحكيمة الّتي تعكس ديمقراطيّة مجتمعاته وحضارتها.

* أستاذة في كلّية الحقوق، جامعة قسنطينة-الجزائر

من أخلاق الحرب في التّوجيهات النّبويّة*

لا تَغدروا!

إعداد: أسرة التّحرير

امتَنَع صلّى الله عليه وآله من قطع الماء في «خَيْبَر»، كما أنَّ أمير المؤمنين بعد أن أخذ الماء من معاوية وقيل له أن يمنع الماء قال: «خلُّوا بينهم وبين الماء، فإنَّ اللهَ نَصَرَكُم ببَغيهم وظُلمهم».

ما يلي توجيهاتٌ نبويّةٌ حول أخلاق المواجهة مع الأعداء، تقدِّمها «شعائر» إسهاماً في الرّدّ على حملات التّضليل الّتي يشنُّها المستعمرون والتّكفيريُّون في الافتراء على الإسلام، والنّبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله.

كان رسولُ الله صلّى الله عليه وآله إذا أراد أنْ يَبعثَ سريّةً:

١- دعاهُم فأجلسهم بين يديه وأجلس أميرَهم إلى جنبه.

٢- أَوْصى أميرَ الجيش بتقوى الله في خاصّةِ نفسه، وبِمَن معه من المسلمين.

٣- ثمّ قال: سيروا بسم الله وبالله وفي سبيل الله وعلى مِلّة رسول الله.

٤- لا تغلوا، [يعني من المغانم]، قبل القسمة أو لا تخونوا.

٥- لا تمثّلوا، [والمُثلة قطع الأعضاء]، كما أنّه نهى عن القتل صبراً أيضاً، وهو أن يُجْعَل المقتول [المراد قتله] غَرَضاً [هدفاً] يُرمى حتّى يموت، أو يُحبَس حتّى يُقتَل.

٦- لا تغدروا، يعني في عهودهم ومواثيقهم وفي الأمان الّذي يعطون العدوّ.

٧- لا تقتلوا شيخاً فانياً لا دخلَ له في الحرب.

٨- لا تقتلوا صبيّاً (وليداً) .

٩- لا تقتلوا مُتبتِّلاً في شاهقٍ، [أي المُنقطِع (في جبل) الفارغ للعبادة].

١٠- لا تقتلوا النّساء إلّا أن يقاتِلْنَ، فإن قاتَلْنَ فأمْسِكوا عنهنّ ما أمكنكم.

١١- لا تقطعوا شجراً.

١٢- لا تحرقوا نخلاً.

١٣- أيُّما رجلٍ من أدنى المسلمين أو أفضلهم نظر إلى أحدٍ من المشركين فهو جارٌ له حتّى يسمع كلام الله، فإذا سَمع كلامَ الله فإن تَبعكُم فأخوكم في دينكم، وإنْ أبى فاستعينوا بالله وأبلغوه مَأمَنَه.

١٤- لا تُحرقوا زرعاً.

١٥- لا يُلقى السّمّ في بلادهم.

١٦- لا تُعقَر البهائم ممَّا يُؤكل لحمهُ، إلّا ما لا بدّ لكم من لحمه.

١٧- أمير الجيش أضعفهم دابّة.

١٨- إذا لقيتُم عدوّاً للمسلمين فادعوهم إلى الإسلام. فإن دخلوا فيه فاقبلوه منهم وكُفُّوا عنهم وادعوا إلى الهجرة بعد الإسلام، فإن فعلوا فاقبلوه منهم وكُفُّوا عنهم.

١٩- وإنْ أبَوا أن يهاجروا واختاروا ديارهم وأبَوا أن يدخلوا دار الهجرة، كانوا بمنزلة أعراب المؤمنين يجري عليهم ما يجري على أعراب المؤمنين، ولا يجري لهم في الفَيْء ولا في القسمة شيءٌ، إلّا أن يهاجروا في سبيل الله.

٢٠- فإن أبَوا هاتَين فادعوهم إلى إعطاء الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، فإن أَعطوا الجزية فاقبلوا منهم وكُفُّوا عنهم.

٢١- وإن أبَوْا، فاستَعينوا بالله عليهم وجاهدوهم في الله حقّ جهاده.

٢- ولا تدفعُنَّ صُلحاً دعاكم إليه عدوُّكم لله فيه رضا.

٣- لا تهدمُنَّ بناءً.

٢٤- إنّه صلّى الله عليه وآله امتنع من قطع الماء في خيبر [كما في (البحار)، ج٢١/ ٣٠]، كما أنَّ أمير المؤمنين بعد أن أخذ الماء من معاوية وقيل له أنْ يَمنعَ الماء، قال: «**خلُّوا بينهم وبين الماء، فإنَّ اللهَ نَصَرَكُم بِبَغيِهم وظُلمِهم**» [راجع صفّين لنصر ص ١٦٢، وابن أبي الحديد ج ٣/ ٣١٩] أو قال: «**فإنّ القوم قد بدأوكم بالظُّلم وفاتحوكم بالبَغْي**»، عدّ عليه السّلام منعهم الماء ظلماً، أو قال «**خلُّوا بينهم وبينه لا أفعل ما فعله الجاهلون**» [ابن أبي الحديد ج ٣/ ٣٣١].

* من كتاب الأسير في الإسلام، الشّيخ عليّ الأحمديّ